بسم الله الرحمن الرحيم

هموم الأمن الفلسطيني

الدكتور عبد الستار قاسم

تشرين أول/2003

هموم الأمن الفلسطيني

مقدمة

نجح الكيان الصهيوني عبر السنوات في ملاحقة العديد من الفلسطينيين والإيقاع بهم، وفي متابعة الخلايا الفلسطينية وتفكيك العديد منها، وإجهاض الكثير من المحاولات الفلسطينية لتوجيه ضربات لأهداف إسرائيلية. لقد اخترق العدو الصفوف وجنّد العملاء وكان قادرا على جمع الكثير من المعلومات مما مكنه من تحقيق نجاح في حالات كثيرة جداً. صحيح أنه لم يكن ناجحا في كل محاولاته، لكن دقته في تحديد الأهداف ورصد التحركات لا يمكن تجاهلها أو الاستهانة بها. وقد أظهرت التجربة الفلسطينية خلال الانتفاضة الجارية حاليا مدى هشاشة الوضع الأمني الفلسطيني ومدى قدرة الكيان الصهيوني على ضرب الأهداف بدقة. استطاع العدو أن يجمع المعلومات الكثيرة حول النشاطات الفلسطينية ومكنته قدراته التقنية على القيام بمهام دقيقة مذهلة. اغتال العديد من النشطاء الفلسطينيين وضرب العديد من المواقع الحساسة.

اجتاح الإسرائيليون مناطق الحكم الذاتي الفلسطيني ومعهم القوائم الطويلة من المطلوبين والنشطاء الفصائليين، وكذلك الكثير من العناوين والنقاط الهامة من الناحية العسكرية، ولم يجدوا العناء الكبير في الوصول إلى أهدافهم مثل الأماكن السكنية والمخابئ. كان الإسرائيليون على معرفة ولو غير مطلقة بأسماء المحاصرين داخل مقر رئيس السلطة، وتوفرت لديهم معلومات على قدر كبير من الأهمية حول مدينة نابلس القديمة وهكذا. أما في غزة فواضح أن إسرائيل تتمتع بنفوذ استخباراتي واسع وأن عملاءها أوفياء للنعم البخسة التي يحصلون عليها. هذا لا يعني أنهم وصلوا إلى كل ما يريدون وأنهم قد اخترقوا كل الاحتياطات الأمنية الفلسطينية ومخيم جنين شاهد على هذا، لكنه من الواضح أن المشكلة الأمنية الفلسطينية القائمة منذ أكثر من ثلاثين سنة ما زالت عميقة الجذور.

بصراحة، الساحة الفلسطينية مليئة بالمخبرين والجواسيس والعملاء، وهو الأمر الذي يتحدث به الناس على مختلف مشاربهم ومستويات عملهم. يظهر بين الحين والآخر فلسطيني يدافع عن هذه الظاهرة الخطيرة قائلا بأن كل الأمم تعاني من هذه الآفة وأن الشعب الفلسطيني معرض للاستقطاب أكثر من غيره من الشعوب بسبب وجود الاحتلال. هذا جدل صحيح، لكن حجم الظاهرة كبير إلى درجة أنه يفوق بكثير المساحة التبريرية التي يمكن أن تحلو للبعض. إنه لا يجوز لشعب يعاني من الغزو والتشريد والاحتلال على مدى أكثر من ثمانين عاما أن يبقى تحت وطأة مثل هذا الكم من الاختراقات وتحت هذا التبرير الذي يشجع العملاء.

على الرغم من الإلحاح المستمر بضرورة تطوير برامج أمنية تعالج القضية بشقيها القائم والسببي إلا أن الاستجابة غير موجودة أو ضعيفة جدا. الشعب الفلسطيني بحاجة إلى برامج تلاحق الجواسيس والعملاء الموجودين، وإلى البحث عن أسباب الظاهرة لمعالجتها من جذورها. إنها مسألة أشبه ما تكون بمرض لا يمكن علاجه إلا بالقضاء على أسبابه. حسب معرفتي، لم تعمل منظمة التحرير الفلسطينية منذ أن مركزت نشاطها في الأردن على مكافحة الاختراقات الأمنية، وقصّرت الفصائل كثيرا في الانتباه والمعالجة.

ربما يسأل أحد عن دور السلطة الفلسطينية في تطوير البرامج الأمنية الفلسطينية. سؤال من هذا القبيل يبين عدم معرفة السائل بأن السلطة الفلسطينية لم يكن لها أن تقوم لولا التزامها بمتطلبات الأمن الإسرائيلي، بمعنى أنها قامت على استباحة الأمن الفلسطيني مقابل كيان فلسطيني هزيل أحدث أضرارا أكثر مما جلب منافع. والدليل على ذلك هو أن عددا من الفلسطينيين المناضلين قد تم تسليمهم عنوة من قبل أجهزة الأمن الفلسطينية للإسرائيليين، وأن الأجهزة الأمنية لم تتوقف عن التنسيق الأمني وتزويد الجانب الإسرائيلي بالمعلومات الهامة عن النشاطات الفلسطينية السرية. وقد أعلنت أجهزة الأمن مرارا عن نجاحها في إحباط العديد من محاولات القيام بعمليات عسكرية ضد إسرائيل وعن ضبط معامل لتصنيع المتفجرات.

قامت السلطة الفلسطينية بملاحقة بعض الجواسيس وأعدمت اثنين منهم مع بداية الانتفاضة الحالية، وأعدمت ثالثا في غزة

بتهمة ثار حولها الشك، لكن ذلك كان أشبه ما يكون بذر الرماد في العيون. حجم ما قامت به السلطة قليل جدا بالنسبة لما هو مطلوب، و(لو) كان في الأمر جدية لانتهى كثيرون من المسؤولين وغير المسؤولين في مواقع وعلى أعواد لا يرغبون برؤيتها. وبالتأكيد سيجادل أحد ضد هذا القول على اعتبار أن السلطة تعرضت للهجوم الإسرائيلي المستمر خلال الانتفاضة والاجتياح الأخير بقصد تدميرها. هذا جدل لا يصمد إذا قلنا إن من يريد القضاء على نظام لا يقصف أبنية وإنما يقصف من يقومون على النظام. النظام ليس بأبنيته وإنما بالقائمين عليه. وهنا ليس المقصود أفرادا مخلصين للوطن في هذا الجهاز أو ذاك، وإنما أجهزة بسياساتها والصف الأول من القائمين على شؤونها.

تم الحديث كثيرا حول المسائل الأمنية الفلسطينية لكن بجدوى قليلة جدا. يبدو أن تحسنا قد طرأ على الأداء الأمني لبعض الفصائل، لكن الاجتياح الأخير وموجة الاغتيالات أثبت وجود ثغرات واسعة جدا. من المطلوب أن يتعلم الراغبون في القيام بأعمال تقود إلى التحرير أسس الأمن والاحتياطات الملازمة لها. وربما من الضروري صناعة رأي عام ليس على المستوى الفلسطيني فقط وإنما على المستوى العربي أيضا لترسيخ قيم أمنية جادة.

اغتال العدو الصهيوني عددا لا بأس به من القيادات الفلسطينية والمناضلين الفلسطينيين، واستطاع الوصول إلى بيوت ومقرات البعض تاركا لهم الرسائل والتهديدات. وعبر سنوات النضال الفلسطيني داخل الأرض المحتلة كان بإمكانه أن يكشف عن الخلايا ويضربها أو يعتقل أفرادها قبل أن تقوم

بالعمل، وعبر ذات السنين كان قادراً على اعتراض العديد من المجموعات المسلحة التي كانت تحاول التسلل عبر الحدود خاصة من جهتي لبنان والبحر المتوسط والقضاء على أفرادها أو اعتقالهم. ولا يبدو أن العدو كان خائباً في جمع المعلومات عن مراكز اتخاذ القرار أو التدريب أو التخطيط أو التخزين أو التحرك.

بالرغم من الإخفاقات التي مني بها العمل الفلسطيني والنجاحات الاستخبارية والعسكرية التي حققتها إسرائيل لا يظهر أن الناشطين الفلسطينيين قد تعلموا الدروس بشكل جيد على الرغم من أن بعضهم يحاول تصحيح الأوضاع الأمنية بحيث تستعصي المعلومات على العدو. واضح أن الأخطاء تبقى إلى حد كبير كما هي عليه، بل وتتراكم عبر الزمن، ولا يبدو أن الحرص الأمني ضمن الأولويات. يشعر المرء أحيانا أن الأوضاع الفلسطينية المختلفة عبارة عن كف مفتوح أمام الصهاينة، ويشعر أن الفصائل والأحزاب والمسؤولين الفلسطينيين لا يكترثون لهذا الأمر من الناحية العملية، حتى أن هناك من تتسلل الى نفسه الشكوك بأن هناك من بين الفلسطينيين من هو معنى بالتسيب الأمني.

عوامل التسيب

لم يأت التسيب الأمني على الساحة الفلسطينية من فراغ ولم يكن وليد لحظة تاريخية معينة بقدر ما كان مواكبا لسنوات الصراع ضد الغزو الصهيوني والانتداب البريطاني. هناك أسباب وعوامل أدت الى هذا الوضع منها ما يعود الى التركيبة الاجتماعية للمجتمع الفلسطيني ومنها ما له علاقة

بطرق التنظيم الفصائلي والحزبي واستقطاب العناصر والعلاقة ما بين مختلف الفئات. هناك بالطبع جهود استخبارية اعتيادية من قبل العدو ووسائل دعمها تقنيا، لكن هذه لا يمكن تصنيفها ضمن عوامل التسيب ويعتبر نجاحها معتمدا ولو جزئيا على عوامل التسيب الذاتية. أي أن التسيب ذاتي وليس خارجيا، وأن النقاش هنا ينحصر في العوامل الذاتية التي تشكل عاملا أساسيا في دعم العوامل الخارجية.

بالنسبة للعوامل الاجتماعية يشار هنا إلى عدد من التقاليد والعادات والمظاهر المواكبة للسلوك الاجتماعي بصورة عامة. بنقاشها لا نعني أن كل فرد من المجتمع يخضع لها وإنما ما نعنيه هو أن المسائل تشكل ظواهر اجتماعية يمكن البناء عليها واستخلاص النتائج منها. ونرى هنا تلخيص الظواهر التي تعنينا بالتالي:-

أولا: التدخل في الشؤون الخاصة

يعاني المجتمع العربي بصورة عامة لا مطلقة ومن ضمنه المجتمع الفلسطيني من مشكلة التهاون في احترام الحياة الخاصة. ينتاب الناس رغبة في معرفة أشياء عن الحياة الخاصة للآخرين ويرغبون في التدخل بها بشكل أو بآخر. يرغب الجار في استكشاف ما يفعل جاره في نهاره وليله، وفي التعرف على علاقاته مع ذويه وجيرانه الآخرين وأصدقائه وزملائه في العمل. حتى أنه يحاول التسلل إلى العلاقة ما بين الزوج وزوجه وأنماط حياتهما وتنافرهما وتوافقهما بصورة مخالفة لكل معايير الأدب والقيم الدينية، يرغب المرء في بلادنا أن يعرف ماذا يخفي ذلك الرجل في الكيس الذي يحمله، وماذا همست المرأة في أذن الأخرى،

ومن الذي زار ذلك الشاب الليلة الماضية، وفيما إذا كانت عروس الأمس قد حملت أم بعد، وفيما إذا كان الشاب الذي لوح بيده لتلك الفتاة قد تقدم لخطبتها أم لا، وإلى آخر ذلك من الأمثلة التي نعرفها جميعا.

لا يتوقف الأمر عند هذا، و إنما يتم استكماله في جعل الأمور الخاصة للآخرين مادة للتسلية في الجلسات والسمر. يعاني المجتمع العربي من مشكلة جعل الآخرين مادة لتمضية الوقت، ومن المفضل عادة ألا يتم التركيز على الصفات الحميدة. ربما لا يقصد الناس الإساءة دائما، إلا أنهم يملكون الكثير من أوقات الفراغ التي يصعب ملؤها من دون القيل والقال، وهكذا تتحول أحوال الناس الخاصة الى قصص علنية حتى لو بقيت تروى بالهمس.

ينعكس هذا سلبا على العمل الوطني خاصة في ظل شراك و مصائد أمنية كثيرة. فمثلا قد تقول امرأة لجارتها إنها رأت في الليل ملثما يحمل السلاح وأن مشيته تشبه مشية ابن فلانة. تهمس الجارة لأخرى والأخرى لأخريات، وهكذا حتى يصبح السر على لسان كل شخص. ومن المحتمل أيضا أن يقول رجل إنه رأى فلانا يجري مسرعا بعدما دوى انفجار أصاب جنودا صهاينة، وبالهمس تمتد الأقاويل حتى يصل الخبر إلى آذان الأعداء. وعلى هذا قس. بهذه الطريقة يستطيع العدو أن يصل إلى عدد من الأسرار والنشاطات فيحبطها قبل أن تتسع وتشكل تهديداً له.

ثانيا: حب التفاخر والظهور

يقع المناضل أحيانا في مصيدته الذاتية وذلك من خلال عدم الاحتفاظ بسره. فقد يقوم الشخص بعمل فيصنع به حدثا تتناقله وسائل الإعلام ووكالات الأنباء. وقد يرى أن الناس قد أعجبوا ببطولة هذا الذي صنع الحدث فلا يتمالك نفسه ويحدث صاحبه بالأمر على أن يبقى سراً. وقد يحدث عشرين كل على حدة ويطلب أن يبقى الأمر سرا. وبالطبع يحدث كل واحد من العشرين عشرين آخرين طالبا منهم ألا يفشوا السر الذي أصبح على الألسن ومن ثم إلى أجهزة مخابرات العدو.

واضح أن العرب ما يزالون يعانون بصورة عامة من حب الظهور والتفاخر والذي هو جزء من عناصر القبلية التي ترى في الوجاهة قيمة عليا. يبدو أن عددا لا بأس به منا ما زال يتلقى تربية تلقينية تقوم على التميز والتفوق وضعف الاعتراف بقدرات الآخرين. وكأننا بذلك نعوض نقصا فشلت البرامج التربوية في ردمه وهو أن يرى الإنسان نفسه من خلال حركات استعراضية والتي يمكن أن تقود إلى نتائج سلبية. فإذا فشل المرء في بناء ثقة في النفس مرتكزة على قوى تنبع من داخله يلجأ إلى التمثيل ليثبت للآخرين أنهم من الصعب أن يطاولوه على أية حال ، هذه مسألة تستحق الدراسة المستفيضة من قبل علماء في عدد من التخصصات.

المهم هنا أن بعض الشباب المسلحين لا يترددون على سبيل المثال في الظهور أمام الناس أو أمام آلات تصوير وسائل الإعلام، وعدد منهم يحاول بتعمد وإصرار أن تصل المعلومات حول تسلحه إلى الناس ، ويجدون سرورا بالغا في اللعب بسلاحهم خاصة في المناسبات . وبهذا العمل يقدم

المسلح هدايا معرفية مجانية لأجهزة المخابرات المعادية . يتم التعرف عليه بالاسم ونوع السلاح ومكـان السـكن وبعـدد الطلقات التي أطلقها وتلك التي بقيت معه.

لقد أثر التظاهر بالسلاح أو بالتدريب أو الفنون التنظيمية وما شابه ذلك على قدرات الشعب الفلسطيني وأوقع الكثيرين فـي مصائد الاغتيال الصهيوني أو الاعتقال . لقد دفع الشعب ثمناً باهظاً نتيجة هذه المعضلة وما زال يدفع، وعلى الـرغم مـن وضوح السلبيات الناجمة عن هكذا سلوك إلا أن البعض مـا زال يصر عليه.

ثالثاً: المشابهة

ربما يكون هناك من يقدر معنى الكتمان وأهمية الأسرار لكن لا يستطيع أن يصمد أمـام إغـراءات الوصـف بالبطولـة والالتزام بالدفاع عن الشعب. فهو قد يرى مسلحين يجوبون الشوارع ويطلقون النار ويثيرون إعجاب الآخرين. فلمـاذا لا يكون بطلاً كهؤلاء؟ وكيف ستتشبع السرية هذا الاندفاع المتولد لديه؟ وغدا عندما يقوم بعمل بطولي ضد العدو فـإن النـاس سيظنون أن الاستعراضيين هم الذين قاموا به، أما هو البطـل الحقيقي فلن يذكره أحد.

أوقع هذا السلوك عدداً لا بأس به من أبناء الشعب في بـراثن المخابرات الصهيونية أثناء مرورها بمـا عـرف بغـرف" العصافير" أي الجواسيس في المعتقلات . كان يصمد الشـاب أثناء التحقيق ويتحمل التعذيب بكافة أشكاله، لكن كان يـدلي بالمعلومات في تلك الغرف. ببساطة كان الجواسيس يتحدثون عن بطولات وهمية قاموا بها ضـد الاحـتلال الصـهيوني

ويسهبون في وصفهم للنضالات الخرافية التـــي خاضـــوها . كانت هذه الأحاديث تشكل حوافز للشاب ليتحدث عن بطولاته أيضاً ويضيف إليها أحياناً أعمالا لم يقم بها. وهكذا كان يجـــد الشاب نفسه في صباح اليوم التالي أمام رجل المخابرات الذي كان قد تلقى الاعترافات من الجواسيس ليلاً.

رابعاً: التسليم للسلطان

تعبير التسليم للسلطان عبارة عن تخفيف لكلمـــة التجســـس. الجواسيس في البلاد العربية عبارة عـــن ظـــاهرة معروفـــة والناس يحاولون باستمرار عدم الخوض بالأحاديث التي يمكن أن توصلهم إلى غرف التحقيق. أناس كثر يعملون في أجهزة المخابرات في البلاد العربية وهم عبارة عـــن أدوات لقمـــع الناس وقهرهم والاعتداء على حرياتهم. إنهم لا يتورعون عن كتابة التقارير ضد الناس ورصد تحركاتهم وأقوالهم. ويبدو أن هناك إقبالاً على القيام بهذا العمل، حتى أن العمـــل لصـــالح المخابرات الإسرائيلية سواء الداخليـــة أو الخارجيـــة يبـــدو واضحاً. جندت إسرائيل أعداداً كبيرة من المسؤولين والنـــاس العاديين في الدول العربية لخدمة تطلعاتها المعرفية ولتزويدها بكافة أنواع المعلومات. الدول العربية مخترقة أمنياً من قبـــل إسرائيل وكذلك الفلسطينيون بمختلف تنظيماتهم وتجمعـــاتهم. وهؤلاء يشكلون التهديـــد الخطيـــر لأمـــن العـــرب عامـــة والفلسطينيين خاصة.

على الرغم من تقديم المخـــابرات الصـــهيونية الإغـــراءات المختلفة لتجنيد الجواسيس والعملاء إلا أن عوامل اجتماعيـــة تعطي تفسيراً جزئياً لانتشار الظاهرة. وهنا نذكر منها:

i- **التسلط البيتي:** ما زال جزء لا بأس به من الأسر العربية يعاني من التسلط داخل البيت: الأب يتسلط على الجميع، الأم تتسلط على البعض، الابن الأكبر على الأصغر، الذكر على الأنثى. وقد واكب هذا التسلط شكاوى متواصلة من الأضعف إلى الأقوى وتقارير شفوية يقدمها الضعيف إلى القوي حول ما قام به الضعفاء الآخرون أثناء غيابه. فمثلاً تنتظر الأم الأب لتشكي همها من الأولاد وتحدثه بكل ما فعل كل منهم. في مثل هذا الجو يبدأ الطفل بالظن أن هذا هو السلوك الصحيح وأن عليه أن يحاكيه.

ii- **الأحقاد القبلية:** العائلية مقيتة أحياناً بحيث أنها تولد أحقاداً بين الناس وتقود البعض إلى الإيقاع بالآخرين حتى لو كان الغريب عدوا للجميع. وقد شهدت الساحة الفلسطينية حالات من التعامل مع العدو على هذه الخلفية وذلك في عهدي الانتداب البريطاني والاحتلال الإسرائيلي. من خلال العدو تكسب عائلة قوة وتستطيع أن تحصل لأبنائها على وظائف حكومية وتسهيلات اقتصادية أخرى تجعلها ذات نفوذ . وهذا ما يدفع العائلة المنافسة إلى القيام بذات العمل حتى لا يضعف موقعها الاجتماعي أمام العائلة الأخرى.

iii- **الظلم الناجم عن استغلال الحاجة:** تعرضت قطاعات من الشعب الفلسطيني لظلم أوقعته عائلات إقطاعية أو متنفذة وتم استغلالها بطريقة بشعة وبدون أدنى احترام للانسان والقيم الأخلاقية الكريمة. استُغل عدد من الناس لأسباب عدة منها الفقر وعدم وجود العزوة وربما أحياناً لأنه من قرية نائية أو أنه لاجئ يبحث يائساً عن عمل . من شأن هذا الاستغلال أن يولد شعوراً بالظلم ورغبة في الانتقام الارتماء بأحضان

السلطة المحتلة كان خياراً بالنسبة للبعض واستطاعوا من خلال خدمتهم للعدو أن يشبعوا رغبتهم في الانتقام.

وقد لوحظ أن عدداً من العمال يقولون أحياناً إن العمل لدى "الخواجات"، يعني اليهود، أفضل من العمل في معامل ومزارع عربية. وهم يعللون ذلك في أن العربي يماطل في دفع الأجر ويسيء التعامل مع العمال. هناك آخرون يقولون العكس، لكنه من الواضح أن ممارسة الظلم عبارة عن عمل مقيت يدفع ببعض أبناء الأمة إلى أحضان العدو.

iv- **الشعور بالنقص وضعف الاحترام الذاتي:** التسليم للسلطان يتطلب ويتمشى مع الشعور بالنقص وضعف الاحترام الذاتي. يحاول السلطان أن يقول لمن يتسلط عليهم إنهم لا يقوون على عمل المفيد ولا يستطيعون تدبير أمورهم بغيابه. ولكي يعزز ذلك يعمل على الإمساك بخيوط القوة ومقوماتها ليجعل من الآخرين دونه عالة عليه وفاقدي القدرة وتبعيين. وهو دائماً يؤكد لمن حوله عجزهم وقلة حيلتهم وضياعهم في حالة غيابه.

نحن نلمس هذا إلى حد كبير في أساليبنا التربوية. ففي البيت يكرر الآباء على الأبناء عبارات مثل" أنت لا تعرف" و" أنت لا تقدر" فضلاً عن عبارات التعنيف والاستهتار. وهذا أسلوب يمتد إلى المدرسة، وفيها تتنامى تربية التلقين التي تهلك المبادرة الذاتية وتحيل الإنسان إلى ببغاء غير قادر على الإبداع وصناعة الحدث. ويلاحق شبح الببغاوية والتبعية للمدير و المسؤول الناس في وظائفهم ودوائر أعمالهم. وعبر أيام الملاحقة الطويلة والتي قد تمتد مدى الحياة يدرب الإنسان

نفسه على إتقان التبعية وفقدان الذات والصغار أمام من هم أعلى منه في مراتب التسلط.

إنه تدريب على الذنبية (أن يكون المرء ذيلاً لغيره) بغض النظر عن الثور الذي يلتصق به الفرد. فالثور لا يتم تعريفه حسب معايير العداوة والصداقة وإنما حسب العصا التي يحملها وما يتبعها من نِعَم يمكن أن تواكب الطاعة والامتثال. لا يشعر الفرد داخله بالقوة ولا يشعر بالاحترام الذاتي، وتكبت على أنفاسه ضغوطات الهوان ومشاعر العجز والإذلال. لهذا لم يكن من الغريب أن تنضوي أعداد هائلة من الناس في الوطن العربي في أجهزة مخابرات لا همّ لها سوى ملاحقة المواطن والاطمئنان إلى ببغاويته وذنبيته. كثيرون هم الذين لا يرون عارا في التجسس على إخوانهم وأخواتهم وأبناء وطنهم وأصدقائهم لقاء بعض المال أو الامتيازات. وقد خبر العديد منا أصدقاء لهم يطعنونهم بالظهر ويشون بهم إلى أجهزة المخابرات. حتى الطلاب و الطالبات في المدارس والجامعات وكذلك المدرسون والمدرسات ثم تجنيدهم حرصاً على إذلالهم وتأكيداً على احتقارهم لأنفسهم.

ولهذا لم يكن من المستغرب أن نجد في الوطن العربي وفي فلسطين من يقدم خدمات استخبارية هامة للعدو. لقد هزمنا العدو الصهيوني استخبارياً ومعلوماتيا، ومن الواضح أنه اعتمد في تحقيق بعض أهدافه على أولئك العجزة الذين ولدتهم التربية العربية.

النقاط الواردة أعلاه بحاجة إلى دراسة وتمحيص وأبحاث علمية، والوقوف تماماً عندها والأضرار المترتبة عليها

يتطلب برنامجاً على المستوى القومي تغدق عليه الحكومات الأموال الكافية. تصحيح الوضع الناجم عن مسائل تربوية لا يتم بقرارات يمكن تطبيقها فوراً، وإنما لا بد من التشخيص الدقيق ووضع السياسات التربوية التي يمكن أن تصنع وسائل تربوية جديدة تحرر الإنسان العربي بما هو فيه من ضعف يعرضه لخدمة الآخرين على حساب الصالح العام. وهذه السياسات خاضعة لسياسات القادة والحكام، إذ من المحتمل أن يكون الحاكم أو المسؤول عميلاً لقوى خارجية ولا يتمنى حياة تحرره من نير الآخرين. وهناك من يؤكد أن الحكام والقادة هم العملاء الكبار الذين يرون وضعهم الشخصي وحكمهم رهينة بيد العدو الذي يستطيع خلعهم أو استبدالهم أو قتلهم، وأنهم بذلك معنيون بتجنيد العملاء والجواسيس لصالح العدو ضد الأمة والشعب.

العوامل التنظيمية:

يصعب القول إن التنظيمات والأحزاب والفصائل الفلسطينية قادرة على حفظ أسرارها لنفسها، ومن الصعب الظن بأنها غير مخترقة من قبل العدو الصهيوني أو قوى أخرى متعاونة مع الصهاينة. كرس العدو جهوداً كبيرة لاختراق الصفوف الفلسطينية، ويبدو أن المنظمين لم يكترثوا كثيراً بهذه الجهود. ويخيل للمتابع لتطورات الأحداث على الساحة الفلسطينية أن العدو يتسلح بمعلومات كبيرة عما يجري داخل التنظيمات من نشاطات وجدليات، الخ.

تتعدد أسباب هذا الضعف الأمني، نذكر منها الآتي:

أولاً: غياب الانتقائية : لم تتوخ قيادات الفصائل منذ البدء مبدأ انتقائية العضوية إلا شكلياً في بعض الأحيان. فتحت هذه التنظيمات أبوابها منذ العام 1967 أمام كل من أراد التجند في صفوفها. وقد شكلت معركة الكرامة لعام 1968 منعطفاً في تدفق المتطوعين لصفوف الفصائل وقبولهم دون تمحيص أو تدقيق بخلفياتهم الاجتماعية والأخلاقية والسياسية والفكرية. وبالطبع كان الباب مفتوحاً أمام مختلف أجهزة المخابرات لاختراق الصفوف وزرع العملاء ومن ضمنها المخابرات الصهيونية. وما زالت الفصائل غير معنية بالتدقيق وبخاصة التدقيق الأمني، ويستطيع المرء أن ينتمي لأي فصيل فلسطيني بسهولة ويسر.

تعمل الفصائل والتنظيمات التي تخوض صراعاً وتحرص على تماسكها الأمني على وضع البرامج والشروط التي تنظم العضوية. يخضع المرشح للعضوية لفترة دراسة تمنح الفصيل الفرصة للبحث عن خلفياته، وتخضعه لفحوصات أمنية متعددة لتتأكد من أنه ليس مندساً، ويخضع لفترة اختبار بعد قبول عضويته. العضوية عبارة عن شيء هام في حياة التنظيم وتجب في حال الشعب الفلسطيني أن تخضع لعدد من الإجراءات أكثر تعقيداً من حال أي شعب آخر بسبب المخاطر الأمنية الهائلة التي يفرضها العدو وأعوانه في المنطقة.

ثانياً: التركيز على الحجم العددي على النمط العربي القبلي القديم. ركزت بعض الفصائل على الكثرة وليس على النوعية، وكانت كثرة الفصيل مرتبطة بثرائه. كبر عدد أفراد الفصائل الثرية بينما بقي عدد أفراد الفصائل الفقيرة قليلاً. وسواء كبر الفصيل أو صغر، لم تكن نوعية الأفراد هي المطلوبة، وإنما

كان العدد اهتماماً أولياً للقيادات. ربما بالعدد تكبر "العزوة"، وبه تتباهى الفصائل بنفسها، وبه تكسب الانتخابات حيثما حصلت. وكأن المسألة لم تكن تتعلق بتحرير فلسطين وإنما بهيمنة على الساحة الفلسطينية.

شكل الحجم العددي خطراً كبيراً على أمن الفصائل خاصة والشعب الفلسطيني عامة لأنه فتح المجال أمام مختلف الشخصيات والتوجهات والمآرب لتكون جزءاً من المعادلة الأمنية، وبذلك كانت المعادلة ذات عناصر عجيبة أفرزت تفاعلات خطيرة على مختلف مستويات النشاط الفلسطيني.

ثالثاً: الاستعراض : شكل الاستعراض عاملاً فاضحاً لكل ما يمكن أن يكون سراً لدى الفصائل والتنظيمات، وواضح أن الفصائل تلجأ كثيراً الى نشاطات استعراضية متعددة الأهداف والغايات. وقد أخذ اشكالاً مختلفة منها :

1- **المهرجانات :** صحيح أن المهرجانات ضرورية كأداة للتعبئة والتأثير في الجماهير، إلا أنها استخدمت بطريقة مكثفة وأكثر مما يجب على الساحة الفلسطينية. وغالباً ما يحضر هذه المهرجانات الأعضاء المنتمون للفصيل أو الحزب القائم عليه مع بعض المدعوين من الفصائل الأخرى وعامة الناس. اعتادت وسائل الإعلام الحضور ولم يكن من الصعب أن تصل الصور الى أيدي العدو. وقد دأبت الفصائل داخل الأرض المحتلة على تسجيل هذا النشاط على أشرطة الفيديو وذلك لغاية التوثيق ولطمأنة التيارات في الخارج أن عناصر الداخل نشطة وجماهيرها واسعة. في كثير من الحالات وقعت هذه الأشرطة بأيدي المخابرات الصهيونية.

2- **الانتخابات الداخلية العلنية :** من المفروض أن يتم اختيار القيادات واستبدالها في ظل الاحتلال والصعوبات الأمنية بحذر وسرية حتى لا تتكشف العناصر المناضلة. لكن في الأرض المحتلة كانت تتم هذه العملية وما زالت تحت سمع وبصر الاحتلال وبقوائم مكشوفة وبتصنيفات واضحة للأشخاص المتنافسين والمنتخبين . فمثلاً يمكن أن يعرف بأن فلاناً هو مرشح الجناح العسكري وأن الآخر مرشح الحلول السلمية وهكذا. ساعدت هذه العملية المخابرات المعادية في تصنيف الناس وتبويبهم وملاحقة نشاطاتهم ومراقبتها.

3- **هلامية الخلايا السرية:** شهدت الساحة الفلسطينية خلايا كان يطلق عليها صفة السرية تعد حوالي مئة شخص أو ستين أو ما شابه. كانت تنتشر الخلية الواحدة على طول الضفة الغربية وقطاع غزة، وكان من السهل أن يتعرف أعضاؤها على بعضهم وعلى مواطن سكناهم. لا يشكل حجم هذه الخلايا بأي معيار كان حرصاً على السرية أو حتى على الرغبة في الحفاظ على السرية. كلما كبر العدد ازدادت مخاطر التسلل الأمني ومعه أيضاً ترتفع الشكوك بنوايا المنظم.

هذا سبب رئيس في تفسير سقوط الخلايا قبل أن تعمر في يد العدو، وسرعان ما كان يتم القبض على أعضائها وإيداعهم السجن. وأحياناً يترك العدو الخلايا تعمر قليلاً حتى يتعرف على المدى العسكري الذي تنوي الذهاب إليه، لكنه كان يعاجلها بالاعتقال قبل أن تنفذ العمل. وقد رأينا المشهد المؤلم بأم أعيننا في سجون الاحتلال حيث كان من الواضح أن

الأشخاص المعتقلين قد أدلوا بمعلومات عن بعضهم البعض و أن الخلايا قد أسقطت نفسها وبعضها في أقبية التحقيق.

خدم هذا العمل الرغبة في تكثير أعداد المناضلين التابعين لفصيل معين لكنه لم يساهم في السير نحو تحقيق الحقوق الفلسطينية. بمعنى أن الغرض من قبل المنظم كان استعراضياً وليس نضالياً.

4- **المتحدثون الرسميون والإعلاميون:** حرصت بعض التنظيمات على أن يكون لها داخل الأرض المحتلة من يتحدث باسمها ومن يروج لها إعلامياً ومن يشكل حلقات وصل بينها وبين جماهيرها. بالطبع كان هؤلاء معروفين لدى الاحتلال وقد فتح لهم الجسور للتنقل الحر وللإدلاء بالتصريحات المختلفة والقيام بالنشاطات الإعلامية والسياسية. وبالطبع لا يتم هذا بدون ثمن يقبضه الاحتلال. لم يكن الكثير من هؤلاء جواسيس فحسب وإنما كانوا عملاء يعملون على تنفيذ سياسات تفكك الفصيل وتثير داخله النزاعات وتؤثر سلباً على روحه المعنوية وتسيره في النهاية باتجاه مصلحة العدو.

فضلاً عن ذلك، أصبح هؤلاء المتحدثون والإعلاميون مع الزمن مرجعية للمناضلين الذين ظنوا أن الكفاح هو السبيل نحو تحرير فلسطين. فإذا احتاج احدهم مالاً أو أراد إيصال رسالة سرية كان عليه أن يمر عبرهم، وبالتالي عبر الاحتلال.

5- **النقابات واللجان والجمعيات:** عملت الفصائل والأحزاب والتنظيمات على إقامة النقابات واللجان والجمعيات الخاصة

بها، وكان من الواضح أمـــام الاحـــتلال التوجـــه النضــــالي والسياسي لكل منها وكان قادراً على تطوير السياسات التـــي تشل أي عمل جاد لها.

هناك ضرورة للتنظيمات النقابية والمهنية التي ترعى شـــؤون الفرد وتحافظ على حقوقه وتنمي شخصيته، ولكن عملنا فـــي الأرض المحتلة كان أبعد ما يكون عن العمل النقابي والمهني. كانت مثل هذه التجمعات ذات طابع سياسي لخدمة أشـــخاص وفصائل أكثر مما كانت جمعيات تهتم بالعمل النقابي والمهني. غابت في أكثر الأحيان الأخـــلاق المهنيـــة لصـــالح الأبعـــاد السياسية، ولم تكن الكفاءة أساسية في إدارة الشـــؤون وإنمـــا الانتماء السياسي. وما دام الأمر كذلك والاحتلال يعلم هذا فإنه كان يبتز المعلومات وقتما يشاء إن لم تكن تتوفر له طوعاً.

6- **تسييس المؤسسات العامة:** من أجل إظهار القوة والهيمنة على الساحة الفلسطينية تم تسييس المؤسســـات العامـــة مثـــل الجامعات والمستشفيات ومراكز الدعاية والإعلام المختلفـــة. استطاع من يملك المال أن يسيطر، واستجدى مـــن لا يملـــك نصيباً. فتح هذا باباً أمام الاحتلال لتعزيـــز قدراتـــه الأمنيـــة بالإضافة إلى إبعاد المؤسسات عن القيـــام بأعمالهـــا بمهنيـــة وأخلاق علمية. وبما أن المناضلين لا يستطيعون إدارة هـــذه المؤسسات بمأمن من الاحتلال، أخذ إدارتها من لا يناضـــلون وسيروها حسب برامج لا تزعج الاحتلال ما أمكـــن. قامـــت منظمة التحرير الفلسطينية سابقا بتسليم المؤسســـات العامـــة لأناس بناء على ولائهم السياسي وليس بنـــاء علـــى ولائهـــم الوطني، وهكذا فعلت السلطة الفلسطينية. الولاء السياسي يأتي بالمنافق والكاذب والدجال لأنه لا يبحث عن وطن وإنما عـــن

فوائد شخصية تحت شعارات وطنية جوفاء تتضح هشاشـتها مع أول صدام متوقع مع الاحتلال. قادة المؤسسات هم الأكثر حرمنة وفسادا في البلاد لأن أسس تعيينهم لم تقم على الحق. هؤلاء يسقطون أمام العـدو سـريعا لأن مـن يلهـث وراء مصالحه يصعب عليه أن يقاوم أو يواجه أي سـلطة وعلـى رأسها سلطة العدو.

رابعاً: تبني أعمال مقاومة ضد الصهاينة

جرت العادة أن يقدم الفلسطينيون مفـاتيح أمنيـة لإسـرائيل للبحث عن الذين استطاعوا القيام بعمل أمني ضـد اسـرائيل سواء كان إطلاق نار أو تفجير أو قطع أسلاك كهرباء وذلـك بتبني العمل. كان يسارع التنظيم الـذي يقـوم بعمـل كهـذا بالإعلان عن ذلك ويعلن أنه سيواصل كفاحه حتـى تحريـر فلسطين. وغالباً ما كان يحصل هذا التبنـي بهـدف إثبـات الوجود على الساحة الفلسطينية وللتأكيد للجماهير بأن الفصيل صادق ويواصل القيام بما وعد به النـاس، وكـذلك بهـدف تسجيل نقاط أمام الفصائل المنافسة. وتجدر الإشارة هنا إلـى أن الشعب الفلسطيني لم تكن له أبدا قيادة أمنية تعمـل علـى مواجهة العدو، وبقي كل فصيل مستقلا يقـرر وحـده متـى يتحرك ومتى يتوقف، ومتى ينسق مع الآخرين ومتى يمتنع.

ربما في هذه المسألة بالذات لم يكن الاحتلال يأخذ الأمور بجد لأنه جرت العادة أن تتبنى عدة فصائل فلسطينية عملاً معيناً. فإذا حصل وأن أصيب جندي اسرائيلي تسارع عدة فصـائل إلى الإعلان عن قيامها بإطلاق النار وإيقاع خسائر جسـيمة في صفوف العدو بين قتيل وجريح. لـم يكـن دافـع هـذه

التنظيمات إحداث بلبلة بقدر ما كان دافعها البقاء في الشارع الفلسطيني كفصيل فاعل ينفذ عمليات ضد العدو. دفع الأمر ذات مرة أحد التنظيمات الى تبني عمل عكسري حصل في القدس. وقد تبين فيما بعد أن يهودياً هو الذي قام بالعمل إذ ألقى قنبلة على مطعم عربي فقتل عربياً.

خامساً : التغاضي عن الاختراقات الأمنية

وقعت خلايا كثيرة في أسر الاحتلال قبل أن تقوم بعمل ضد جموعه وقواته، ووقعت دوريات كثيرة في الجنوب اللبناني وفي البحر الأبيض المتوسط في شراك الكمائن الصهيونية قبل أن تصل الهدف. وهكذا كان الأمر بالنسبة للعديد من المتسللين عبر نهر الأردن بهدف مهاجمة مواقع إسرائيلية. لكننا لم نلحظ الاستفادة من الإخفاقات والبحث عن أسباب الفشل والخسائر الكبيرة في النفوس. لم تتطور لدى منظمة التحرير ولدى الفصائل سياسة أمنية من أجل ملاحقة الجواسيس والعملاء وتعزيز الإجراءات الأمنية. استمرت الدوريات تتدفق عبر الزمن، واستمر الفتك الإسرائيلي بها، واستمرت قياداتها بالإعلان عن اشتباكات مسلحة وإيقاع الخسائر بالعدو وعودة مقاتليها إلى قواعدهم سالمين. ضاع العديد من أبناء فلسطين في استهتار أمني دام على مدى السنين تحت بصر وسمع الجميع ومعرفتهم.

لا يختلف الأمر الآن في ظل السلطة الفلسطينية، بل تفاقم. هناك تعاون أمني بين السلطة وإسرائيل والمعلومات الأمنية تتدفق من الجانب الفلسطيني إلى الجانب الإسرائيلي، والجانب الإسرائيلي لا يكتفي ويصر على أن الجانب الفلسطيني لا يقوم

بواجبه خير قيام (ربما خفت حدة هذا التعامــل فــي ظــل ظروف الانتفاضة لعام 2000)

الجواسيس والعملاء يرتعون داخل التنظيمات والمؤسســات، ولا توجد آليات جادة حتى الآن للتنظيف. ومن يــدري فقــد يكون المعوّل عليه أول الخائنين وليس من صالحه أن يصلح أهل البيت. هناك خطابات رنانــة فــي إدانــة الجواســيس وملاحقتهم، وهناك تهديدات وتوعدات، لكن الجاسوس بــات مطمئناً أن الاتفاقيات تحميــه، وبــات المناضــل قلقــاً لأن الاتفاقيات تلاحقه.

كشف شباب الانتفاضة لعام 1987 أعداداً من العملاء أكثر من تلك التي كشفت عنها قيادات التنظيمات. كان الشباب جادين في تنظيف الصفوف، لكن لم يلمس الشعب هذه الجدية من قبل القيادات. وقد رأى الناس بأم أعينهم كيف أن مشبوهين ومتهمين قد أصبحوا أصحاب مسؤوليات عامة. هذا علما أن شباب الانتفاضة وقعوا في أخطاء جسيمة في التثبت من خيانة المتهم.

الخطر التقني -الإليكتروني

شهد الصراع العربي الإسرائيلي منذ مراحله الأولى حروبــا ومعارك شرسة استخدم فيها الجانبان أساليب ووسائل قتاليــة متنوعة، وسخّروا لها جلّ اهتماماتهم العلمية وقدراتهم التقنية لتلعب دورا حاسما. ليس هذا النمط من الصراعات بالجديد أو المحصور في الصراع العربي الإسرائيلي بل هــو الصــبغة

العامة التي تمثل نمط الصـراعات فـي العصـر الحـديث. فالحروب الحديثة هي حروب العلم والتقنية والتفوق في كفاءة السلاح والقدرات العسكرية التي حيّدت الجانـب العـددي للجيوش بشكل لافت، وهو ما مكّن إسرائيل على سبيل المثال من هزيمة الجيوش العربية عام 1967، وهو أهم الصـفات التي ميّزت ما عرف بالحرب الباردة بين القطبـين الشـرقي بزعامة الاتحاد السوفيتي والغربي بقيادة الولايـات المتحـدة الأمريكية عبر الإفراط في التنافس على التطور التقنـي فـي المجال العسكري.

ربما يعود النجاح الإسرائيلي الكبير في ملاحقة العديد من قادة المقاومة الفلسطينية وعناصرها عن طريق عمليـات رصـد وتعقب تعتمد على تقنية الاتصالات هو ما دفعنا لتتبـع هـذه المسألة وتقديمها بصورة مبسطة للقارئ الفلسطيني العـادي. قتل الإسرائيليون خلال انتفاضة الأقصـى (283) عنصـرا قياديا حتى نهاية تموز 2003، وذلك بعـد تعقـب ورصـد وملاحقة طويلة ميزها غالبا استخدام وسائل التعقـب التقنيـة للوصول إلى المصنفين بأنهم مطلوبون. لماذا نجحت إسرائيل في ذلك؟ الاستخدام المكثف للتقنية يجيب جزئيـا عـن هـذا السؤال.

تتحفظ إسرائيل لدواع أمنية عادة عن كشف ملابسات تنفيذها لعمليات قتل نشطاء المقاومة الفلسطينية ولا تكشف من تلـك التفاصيل إلا ما يخدم جانبا توجيهيا متعلقا بـالحرب النفسـية ضد الإنسان الفلسطيني. وقد ترك ذلـك قصـص استشـهاد واغتيال وحتى اعتقال الكثير مـن قـادة المقاومـة وكيفيـة الوصول إليهم لغزا دفن معهم واحتفظ بالمعلومات عنـه فـي

ملفات الشاباك بعيدا عن متناول الباحثين. كما لا تتوفر لـــدى الجهات الفلسطينية المختلفة (الأمنية) الخبرة والقدرات العلمية لكشف تلك الملابسات والأساليب.

تطور التقنية

بدأت آلية الاتصال من خلال استخدام الصوت الذي هو عبارة عن موجات وذبذبات تنتقل في الهواء وتحمل صفات مميــزة لكل منها تعرف بالتردد(frequency) ، وقد أدرك الإنسان منذ القدم وجود العلاقة بين الصوت واللغة والهواء حتى أن اليهود تحدثوا في أسفاركتابهم أن انهيار برج بابل في بلاد ما بـــين النهرين كان بسبب اختلاف لغات الأجنـــاس البشـــرية. وقـــد وصف القرآن الكريم الاختلاف بالآية: "ومـــن آياتـــه خلـــق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فـــي ذلـــك لآيات للعالمين".

مع تقدم العلم في وقت مبكر من تاريخ الثورة الصناعية بـــدأ الإنسان يهتم باستخدام عناصر الاتصال الـــثلاث (الصـــوت، اللغة ، والهواء) ، ودراسة علاقتها بعضـــها بـــبعض لتـــوفير الاتصال عن بعد، فكان اختراع الهاتف في القرن التاسع عشر أول بواعث النهضة في عالم الاتصال. ثم ظهر جهاز التلفاز في بداية العشرينيات من القـــرن العشـــرين ليحمـــل تطـــور الاتصال بشتى أشكالها اللاحقة على قاعدة تحويل الصوت إلى إشارة كهربائية وإشعاعية من مكان ما ثم إعادتها إلى أصـــلها في مكان آخر، لقد أسست هذه القاعدة لظهور علم الاتصالات الحديث على أسس من الاحتياجات والمتطلبات التي ينـــدرج

فيها توفير المرسل والمعالج والمستقبل. في العام 1948، عرف الإنسان أول جهاز كمبيوتر ليشكل الثورة التقنية الحديثة في الحياة الإنسانية من خلال سرعة التعامل مع كمية ضخمة من المعلومات والقدرة على تخزينها وتحليلها لحظيا بكفاءة عالية ليفتح اختراعه الباب على مصراعيه لتطوير عالم الاتصالات.

فتح تطور تقنية الاتصالات شهية الجيوش الحديثة التي أخذت تكثف من سعيها العلمي من أجل إحراز التفوق العسكري. وقد رأت الدول التي تطلعت إلى الصدارة أن لا مجال أمامها إلا إحراز تفوق علمي على الأطراف المنافسة الأخرى وتحقيق سبق تقني يمكنها من الدفاع الفعال أو الهجوم المباغت القاتل. فلم يكن سباق التسلح العالمي إلا سباقا علميا تقنيا كانت فيه الغلبة دائما لمن كان أكثر قربا من خط النهاية. ولنا نحن العرب في ذلك تاريخ من الهزائم أمام إسرائيل التي فضلت طريق العلم والتقنية على طريق الجعجعة والخطابات الخاوية.

ربما في حكاية اغتيال خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحماس في عمان دلالة في هذا السياق. فقد حاول عملاء الموساد اغتيال مشعل بواسطة إدخال مادة سامه مجهولة التركيب إلى جسده عن طريق الأذن بعد أن رصد الموساد تحركات مشعل ذهابا وإيابا من وإلى مكتبه؛ وعند مدخل المكتب هاجمه اثنان من رجال الموساد ليصاب بعدها بحالة من الغثيان نقل على أثرها إلى مستشفى مدينة الحسين الطبية. تمكن مرافقه وحارسه الشخصي من إلقاء القبض على العميلين بعد ملاحقتهما بمساعدة المواطنين،وساءت حالة مشعل الصحية ودخل في غيبوبة كاملة. تسبب الحادث في

إشعال أزمة سياسية بين حكومة نتنياهو والنظام الأردني الذي كان حريصا على الحفاظ على جميع الأوراق بيده وكشف النقاب بعدها عن إرسال الموساد طاقما خاصا إلى الأردن وبحوزته مضادا مجهولا للمصل المجهول الذي حقن فيه مشعل.

لقد كشف أسلوب الاغتيال بمادة كيميائية حيوية لا علاج لها إلا لدى صانعها عن امتلاك الموساد الإسرائيلي لوسائل قتل غريبة وغير معتادة تضع تساؤلات كثيرة أمام الكثير من المختصين بالعمل الأمني في العالم العربي.

التقنية والعمل الاستخباري

فتحت القاعدة الأهم في عالم الاتصالات وهي تحويل الصوت إلى إشارة كهربائية ثم إعادته إلى أصله من جديد في موقع آخر الباب على مصراعيه أمام عالم الرصد وجمع المعلومات فيما يعرف بدائرة التجسس، وذلك من خلال التقاط تلك الإشارة الكهربائية العائمة في ا لهواء والجو المفتوح أمام جميع المراقبين الذين يحرصون على التقاط أي إشارة لتخزينها وتحليلها والنظر في أهميتها، ومن ثم التصرف بناء على ما تحويه من معلومات. هذه هي القاعدة أو المبدأ الفيزيائي الذي تقوم عليه فكرة الاتصال الإليكتروني والتي تمت ترجمتها عمليا عبر أجهزة متعددة منها أجهزة الهاتف الخلوي والحاسوب والبث الفضائي.

الهاتف المحمول واللاسلكي

يعنينا في هذه الورقة دور الهاتف النقال أو الخلوي كأداة تقنية للرصد والتعقب والتجسس على المكالمات ومعرفة المتحدث والتعرف إلى هويته وتحديد موقعه للوصول إليه لاعتقاله أو تصفيته. لأن الهواء جوّ مفتوح للجميع، يستطيع أي شخص مهتم أن يضع لاقط الإشارات (Antenna) للحصول على أي إشارة كهربائية عائمة فيه مثل إشارة هذا الجهاز. ولذلك أصبح الهاتف النقال هو أخطر الأجهزة على حامله كونه يعمل بنفس الأسلوب. تتم آلية التقاط المعلومة منه عن طريق احتجاز أي جملة أو عبارة تحتوي على كلمات تحرص المخابرات على معرفة كل ما يتعلق بها حيث يتم معالجة المكالمة وتسجيلها بشكل كامل ولا تحتاج عملية تحليل تلك المكالمة لأكثر من 1/ 2.5 مليون ألف جزء من الثانية هي سرعة جهاز الكمبيوتر العادي. فإذا علمنا أن أجهزة المخابرات لديها أجهزة أكثر تطورا بعشرات المرات، فإن ذلك يعني أن قدرتها على تحديد موقع المتصل من خلال إجراء حسابات وقياسات للموجات الملتقطة من الجهاز المحمول لا يحتاج إلا إلى القليل من الأجزاء في الثانية وهو ما يعرف بآلية التتبع.

أما التعرف على صاحب المكالمة فهو أيضا أمر سهل. وقرت التقنية الحديثة آلية بسيطة جدا للوصول إليه من خلال ما يعرف ببصمة الصوت، حيث يتم فحص مطابقة للصوت الملتقط مع عينات مخزنة من أصوات الأشخاص الذين

تبحث عنهم دوائر المخابرات، الأمر الذي يشكل أول أساليب الاستهداء إلى المطلوبين عبر الاتصالات اللاسلكية.

تلخص هذه الآلية الأساس العلمي للتعامل مع أجهزة الاتصال كافة من خلال رصد المكالمة بعد جمع الإشارات الكهربائية من الهواء بوساطة اللاقط ثم تحليلها عن طريق أجهزة حاسوب متطورة ومتوفرة مدنيا، ثم تسجيل كل ما يلفت النظر فيها والتعرف إلى المتحدث من خلال برامج علمية تقوم على حسابات صوتية تعتمد على الذبذبات وتميز كل صوت وكأنها البصمة الخاصة به، ثم تحديد مكان المتحدث عبر حسابات غير معقدة بالنسبة لجهاز حاسوب متطور تعتمد على طاقة الموجات الصوتية عند التقاطها وحساب الكمية المفتقدة منها من الطاقة لمعرفة مصدرها. وسنتحدث حول عدد من التطبيقات العملية وحوادث اعتقال واغتيال استخدمت فيها هذه التقنية توا.

الهاتف العادي

يمثل سلك الهاتف العادي وسط انتقال الإشارة الكهربائية من سماعة مرسل هاتف إلى سماعة مستقبل آخر. فهي كالهواء مفتوحة عند الاتصال أمام الجميع وتبدأ تلك الأسلاك بالإغلاق أمام الموجات المرسلة مع إبقاء الخطوط المخصصة للأرقام المطلوبة فقط مفتوحة أمام المستقبل، ومن هنا فإن دوائر المخابرات تستخدم هذا المبدأ للحصول على جميع المكالمات المتداولة وتخزينها جميعا ومعالجتها لحظيا قبل التخلص من ملايين المكالمات التي لا تعنيها حيث تبقي دوائر المخابرات خطوطها مفتوحة لدخول جميع المكالمات إليها دون استثناء.

وهذه إحدى الطرق الكلاسيكية المستخدمة منذ زمن بعيد للتجسس على الهواتف السلكية.

كما أن وجود الأسلاك الحاملة للإشارات الكهربائية يمنح وسطا إضافيا للتجسس من خلال وضع تحويلة سلكية عليها تعمل تماما بمبدأ وجود عدة أجهزة هواتف لنفس الخط والرقم، وهذا نظام شائع الاستخدام في المكاتب متعددة الموظفين. مع رفع المستقبل سماعة هاتفه لسماع المكالمة يكون الراصد له قد رفع هو الآخر سماعته والتقط المكالمة ليستمع إلى كل ما يدور على الطرفين بين المتحادثين. ومن بين الأساليب الشائعة في التجسس على الهاتف استخدام المجال المغناطيسي الذي تولده الشحنات الكهربائية حول سلك الهاتف الذي يمكن أن يمتد آلاف الأميال، فبتقريب لاقط إشارات مغناطيسية من هذا السلك يخترق المجال المغناطيسي ويقوم بإعادة الإشارة المغناطيسية إلى إشارات كهربائية ثم تحول بعد ذلك إلى ذبذبات صوتية. لا تستغرق هذه العملية أكثر من أجزاء قليلة من الثانية لا يدرك المتحدث قيمتها وأهميتها.

البريد الإلكتروني (أو ما يعرف بـ Email) :

يعمل هذا البريد بنفس مبدأ الهاتف ولكن دون الحاجة إلى وجود أسلاك، بل تعتبر الشبكة العنكبوتية العالمية (World Wide web) بمثابة نظام يدمج الاستخدام السلكي واللاسلكي لأجهزة الاتصال بحيث يبقي الراصد خطوطه مفتوحة أمام الإشارات الكهربائية المرسلة في الهواء ليعالجها بجهاز الحاسوب خاصته لحظيا ويتصرف بناء على تلك المعالجة

بنقل ما حصل عليه من معلومات إلى الدوائر الأمنية التنفيذية المختصة لتقرر التصرف المطلوب حيال الرسالة المنقولة ومرسلها ومستقبلها. وفي هذا المجال تحديدا تلعب سرعة التصرف أهمية قصوى إذ أن الإنترنت توفر وسيلة متنقلة للمراسلة لا تلتزم بمكان محدد ويمكن لمستخدمه إرسال رسائله من مواقع مختلفة وأجهزة حاسوب متعددة دون الالتزام بمكان محدد يستخدم كفخ للإيقاع به. فمرسل الرسالة يمكنه إعداد الرسالة(Message) ونقلها على قرص إلى أي جهاز كمبيوتر ثم يرسلها إلى العنوان العائم في الهواء في لحظات ويغادر المكان. وكذلك المستقبل حيث يمكنه تخزين المعلومات بلحظات على قرص آخر ثم يغادر المكان الذي استلمها فيه ليطالعها على جهاز كمبيوتر آخر غير متصل بالهواء المفتوح أمام القراصنة للمراقبة، وهو ما جعل من المراقبين مجرد مطلعين على ما يجري دون أن تتوفر بالضرورة إمكانية تحديد هوية من يقف وراء أي معلومة أو رسالة حيث تبقى كل تلك المعلومات رهنا بالتسابق الأمني في مجال الذكاء التحليلي للمعلومات بالعقول الإنسانية أو الآلية.

الأقمار الصناعية وطائرات التجسس:

تعتبر الأقمار الصناعية أهم أداة تجسس في العالم كونها تحمل أجهزة مراقبة وكاميرات تصوير وأجهزة تسجيل متطورة قادرة على تضخيم الصوت والصورة آلاف المرات. فهي بالتالي ترصد أرضا مكشوفة وتنقل كل ما يدور عليها من تحركات.

لا تختلف طائرات الرصد كثيرا عن الأقمـار الصـناعية إلا بتحليقها على مسافات أقل ارتفاعا عن السـطوح الخاضـعة للمراقبة. ولتجنب المخاطر في استخدام هذه الطائرات فإنهـا تحمّل بآلات التصوير والتسجيل وتطلـق فـي الهـواء دون العنصر البشري (الطيّار) حيث أن أغلب أنواع تلك الطائرات هي من دون طيّار ويتم تشغيلها والتحكم بها من محطات على الأرض توجهها وتدير عملها عن بعد عشـرات الآلاف مـن الأميال.

يشكل استخدام الأقمار الصناعية وطائرات التجسس أسـلوبا عالي الضمان لنجاح العمليات الأمنية المختلفـة التـي يمثـل فشلها ضربة قاسية لأجهزة المخابرات. فعلى سـبيل المثـال قصفت مروحيات عسكرية إسرائيلية سيارة فلسطينية كانـت تسير في منطقة نابلس شمال الضفة الغربية وكـان يسـتقلها محمود أبو هنود واثنين من رفاقه أيمن ومـأمون حشـايكة، وبعد عدة أشهر عرضت القناة الثانية في التلفزيون الإسرائيلي فيلما وثائقيا حول الحادث تحت عنوان" حرب إسرائيل القذرة" نقلت فيه بالصورة الحيّة صورة السيارة الفلسطينية وهي تسير على الشارع قبل قصفها ثم مشاهد القصف وتدمير السـيارة لحظة بلحظة.

لقد أتاح استخدام طائرات التجسـس وآلات التصـوير التـي بداخلها لهيئة الأركان الإسرائيلية مراقبة أبو هنود الذي مثـل مصدر إزعاج للاحتلال من خلال تزعمه لكتائب الشهيد عـزّ الدين القسام الجناح العسكري لحركـة المقاومـة الإسـلامية حماس والمسؤول عن تنفيـذ عـدد كبيـر مـن العمليـات الاستشهادية ضد الإسرائيليين. ولفشل المخابرات الإسـرائيلية

وجيشها في إلقاء القبض عليه أو قتله في عمليتين سابقتين كان فشل العملية الثالثة يشكل ضربة قاسية وصفعة قوية للشاباك الإسرائيلي ورافعة معنوية هامة تحتاجها المقاومة الفلسطينية. وهو ما دفع المخابرات الإسرائيلية إلى اتخاذ كل أسباب النجاح لتنفيذ تلك العملية ذات الهدف المزدوج (الأمني والمعنوي). قامت طائرات التجسس بتتبع السيارة حسب إشارة العميل وبثت صورا لمن هم بداخلها، وفي محطة الرصد تم التعرف إلى هوية أبو هنود والتأكد منها، فصدرت الأوامر للطائرات المروحية الأربعة بتعقب السيارة حتى أصبحت محطة الرصد الإسرائيلية تمسك بخيوط العملية بالكامل قبل أن توجه أمرها العسكري بتنفيذ الهجوم الذي بقي التصوير مسلطا عليه من كاميرات طائرة التجسس للتأكد من قتل أبو هنود قبل عرض هذا الفيلم على شاشات التلفزة كأسلوب لعرض العضلات والقدرات التقنية للجيش الإسرائيلي.

أجهزة التعقّب (Bugs) :

تسمى أجهزة التعقب بالبقة (Bug) بسبب حجمها الصغير. بدأ اللجوء إلى هذه الوسائل مع تطور الترانزيستور وأساليب الشحن والتفريغ للموصلات الكهربائية (البطاريات)، وترجع أهمية هذه الموصلات إلى دقة حجمها وسهولة إخفائها في أي جسم ليتحول إلى مصدر معلومات يصدر الذبذبات والإشارات على شكل موجات شبيهة بأمواج الميكرويف (Microwaves).

أغرب القصص الدالة على استخدام هذه الجسيمات قصة بناء السفارة الأمريكية في الاتحاد السوفييتي، حيث قام الروس بوضع كمية كبيرة منها بين حصى البناء لمنع اكتشافه من قبل الرقابة الأمريكية المشرفة على إقامة السفارة، وبعد الانتهاء من إقامة مبنى السفارة قام الأمريكيون بتفحص التصنّت عليها فوجدوا أصواتهم تنتقل من غرفة لأخرى بشكل منقطع النظير. بحثوا في كل التجهيزات والمقتنيات ولم يعثروا على شيء حتى أزالوا البناء بالكامل وأقاموا بناء جديدا أحكموا له الرقابة على المواد الخام المحضرة.

من جوانب خطورة استخدام هذه الأجهزة إمكانية زرعها دون لفت أي انتباه في أي شيء مثل أجهزة الكمبيـوتر والهـاتف والمحمول، وحتى في الثياب والأحذية وبين الجدران والأثاث بل وفي جسد الإنسان نفسه من خلال جراح بحيث تصبح أدق تفاصيل حياة الشخص المراقب مكشوفة ومعلومة من خـلال بثّ موجات الميكرويف التي تطلقها هذه الجسيمات.

نماذج من الواقع

اعتقال أحد كوادر كتائب القسّام قرب نابلس:

يقول الأسير عن طريقة التعرف عليه: "بعد اعتقـالي مـع أفراد المجموعة العسكرية التي كنت أقودها لتنفيذ هجوم على إحدى المستوطنات قرب بلدة بزّاريا غرب نابلس أحضر لي المحققون في مركز تحقيق الجلمة ملفا رقمت صـفحاته مـن (1-1005) من ورق الـ(A4). لقد كانت هذه الأوراق تحمل

جميع ما تحدثت به إلى أي إنسان بما فيها مكالماتي الشخصية والعائلية فلم أنكر أن هذه المحادثات تعود لي لأنها لا تحمل ما يدينني، ثم فوجئت بعد ذلك بهم يعرضون عليّ أوراقا مشابهة كنت قد تحدثت مكالماتي العسكرية من خلالها." لقد أصاب العرض الجديد المناضل الأسير بالذهول لأنه كان يفرد لحديثه مع القادة العسكريين في كتائب القسّام والمسؤولين عنه رقما آخر، ولا يذكر اسمه ولا لقبه عليه؛ وهذا أسلوب شاع استخدامه بين العاملين في الأجهزة العسكرية الفلسطينية المختلفة(تغيير بطاقة الهاتف الخلوي "سم") عند إجراء مكالماتهم التنظيمية. ويتابع المناضل حديثه بالقول:" أنكرت بادئ الأمر أن يكون الموجود على الورق حديثي وإن كنت قد أقررت أسلوب طباعة المكالمات مبدئيا على ورق فأحضروا لي جهاز تسجيل من نوع"ديجيتال" يشيع استخدامه في مؤسسات الصحافة وأسمعوني مقاطع حسّاسة لعدد من مكالماتي سجّلت بصوتي الشخصي، وواصلت إنكار أنها تعود لي، ثم أحضروا قرصا مضغوطا ووضعوه في جهاز التسجيل وتحدث إليه أربعة محققين بأصواتهم بنفس العبارة وطلبوا مني أن أتحدث بها ففعلت ، ثم أخرجوا القرص المضغوط وأدخلوه إلى جهاز حاسوب وقاموا بتشغيل برنامج خاص يدعى برنامج بصمة الصوت، أدخلوا الصوت الذي سجّلوه من المكالمة ثم قارنوه مع أصوات المحققين الأربعة وصوتي فقام بإعطاء الإشارة الإيجابية عند عرض صوتي فقط، ويضيف : سألتهم أن الحديث الذي قمتم بالتقاطه عبر الهاتف بيّن رقمين مجهولين هو فعلا خطير، لكن كيف عرفتم صاحبه فقالوا لي : ببصمة الصوت أيضا." لقد قام رجال الشاباك بالتصنّت على المكالمات الصوتية العادية لمن يتوقعون عملهم في دوائر

المقاومة الفلسطينية، وكلما تتبعوا مكالمة تنظيمية مجهولة المصدر قاموا بعرضها على برنامج بصمة الصوت فاكتشفوا صاحبها، وهكذا تم الإيقاع بالمناضل وكشف عمله السرّي بصورة كاملة.

خلية من طولكرم :

اعتاد مناضلان من طولكرم استخدام أسلوب تغيير بطاقة الهاتف الخلوي(سم) عند الاتفاق على القيام بطلعة عسكرية أو نقل حقيبة مفخخة أو زرع عبوة ناسفة وغيرها من أعمال المقاومة، لكنهما كانا يجهلان التطور النوعي الذي وصلت إليه الأجهزة الأمنية الإسرائيلية في مجال تتبع بصمات الصوت. ففي تاريخ 2001/8/5 كان أحدهما وهو مواطن من طولكرم يحمل الهوية الإسرائيلية كون والدته من مدينة اللّد ينقل عبوة ناسفة أحضرها من مدينة نابلس إلى رفيقه الذي كان قد جنّد استشهاديا لتنفيذ عملية استشهادية في مدينة نتانيا.

في بلدة عنبتا، لاحظ الأول حركة غريبة لطائرات الأباتشي فقام بالاتصال برفيقه بعد تغيير بطاقة الخلوي. طلب منه الرفيق أن يترك السيارة ويتأكد من إغلاقها ويبتعد عنها مسافة آمنة ففعل. مكث راكب السيارة ساعات في عنبتا حتى اطمأنّ إلى اختفاء الأباتشي قبل أن يسلك طريقا زراعية غير الطريق الأصلية المعروفة للوصول إلى طولكرم، وخلال سيره اصطدم بحاجز يغلق الطريق أمامه وعشرات الجنود يطوقون سيارته

ويصوبون إليه السلاح، ثم ظهرت طائرات الأباتشي فوقه من جديد حيث يقول :" شعرت بمرارة الوقوع في الفخ، فاتخذت قراري بسرعة أن أشغل العبوة الناسفة وأفجر السيارة، لكني تنبهت أن أقرب جندي إلي يبعد عشرات الأمتار وبالتالي فإن تفجير السيارة يعني الانتحار، وخلال ارتباكي قبل اتخاذ القرار كانت كلاب بوليسية قد اقتحمت السيارة وقامت بتجريدي من كامل ثيابي دون أن تخدش جسدي خدشا واحدا وأخرجتني من داخل السيارة إلى حيث يقف الجنود الذين قاموا على الفور بإجراءات التحقيق الميداني. هبطت الطائرات وقام الجنود بإبطال مفعول العبوة وأخذوا الهاتف المحمول وأعطوه لقائد إحدى المروحيات الذي ضحك وأقلع بمروحيته على الفور.

لم تكتمل تفاصيل القضاء على الخلية عند هذا وإنما قامت طائرات الأباتشي بعد دقائق بقصف سيارة بيضاء مملوكة لحركة حماس كانت تسير قرب دوار شويكة في طولكرم واستشهد قائدها محترقا، ليتبين أنه شريك المعتقل. لقد تفحمت جثة الشهيد وبقيت على الهيئة التي استشهد فيها وبيده جهاز الهاتف ملتصق بأذنه مما يوحي أنه تلقى اتصالا هاتفيا لحظة استشهاده ربما يكون من نفس الرقم الذي حمله قائد الطائرة. هذا احتمال منطقي حيث أثبتت علوم الاتصالات إمكانية توجيه صواريخ ذكية مع موجات الهاتف كما فعلت الـ(KJB) -المخابرات الروسية- بجوهر دوداييف القائد العسكري الشيشاني الذي قتل بعد التقاط إحدى مكالماته مع

وزارة الخارجية الأمريكية بوساطة صاروخ روســي تتبــع موجات بثّ الهاتف الذي تحدث منه.

بتاريخ 2001/8/17، قام جهاز الأمــن الخــاص بطــولكرم باعتقال أحد العملاء الذي أكد أن المخابرات الإسرائيلية سلّمته مادة رذاذ طلبت منه أن يرشها على سيارة الشهيد. ماهية هذه المادة ليست معروفة لدينا علميا لكنه من السهل التكهن بأنهــا تبث موجات أو إشارات تدخل إلى جهــاز الحاســوب فــي الطائرة المزودة بالصواريخ.

استخدم الشاباك في تصفية هذه الخلية عدة عناصر تقنية: الهواتف المحمولة، المادة الكاشفة، المروحيات، الموجات الصوتية، الكلاب الحيوانية والعملاء؛ غير أن القاعدة الأساسية التي وصل من خلالها إلى الخلية كانت أجهزة الاتصال.

اغتيال يحيى عيّاش بالهاتف المحمول:

بقي عيّاش ملاحقا من قبل المخــابرات الإســرائيلية لــثلاث سنوات وجنّدت خلفه عشرات العملاء دون أن تظفر منه حتى أصبح في مقام الأسطورة بين الفلسطينيين. وجد الشهيد عيّاش في قطاع غزة، وربطته هناك علاقة بشاب لــم تحــم حولــه الشبهات حسب قرار محكمة فلسطينية في غزة؛ غير أنّ خاله ويدعى كمال حمّاد تمكن من استخدامه للإيقاع بعيّــاش عــن طريق إعطائه جهازا خلويا كان نادرا في حينه. أعطي الشاب الجهاز المفخخ للشهيد عيّاش لإجــراء اتصــالاته، وبتــاريخ

1996/1/5 وصلت الجهاز مكالمة ما إن ردّ عليهـا عيّـاش حتى تفجر الجهاز. تلقت طائرة إشارة المحمـول، فأعطـت إشارة مضادة للعبوة المتفجرة التـي كانـت مزروعـة فـي الجهاز.

اغتيال الشهيدين جمال منصور وجمال سليم ورفاقهما:

كان الشهيدان جمال سليم وجمال منصور يعقـدان مـؤتمرا صحفيا بتاريخ 2001/7/31 للإدلاء بتصريحات حول اعتقال العميل الذي وشى بالشهيد صلاح دروزة وتسبب باغتياله. دقّ جرس الهاتف المحمول لدى الشيخين في نفس اللحظة وكـان علـى الخـط متحـدث ادعـى أنـه مـن هيئـة الأخبـار البريطانية(BBC) ، وما هي إلا لحظات حتى انفجر المكـان بصواريخ طائرات الأباتشي التي يرجح أنها كانـت ترصـد المكان للتأكد من مكـان وجـود الشـيخين قبـل أن تطلـق صواريخها التي اغتالتهما مع ستة مواطنين آخرين.

والعبرة

مما تقدم حول التقدم النوعي الكبير لاستخدام التقنية في تتبـع وضرب نشطاء المقاومة الفلسطينية، وبعد تقديم الأمثلة العملية لحالات اغتيال واعتقال فلسطينيين عبـر متـابعتهم بـأجهزة الاتصال نستطيع القول إن عالم التجسس والتتبع عبر التقنيـة عالم مفتوح على مصراعيه يتطور وتتقدم وسائله بشكل سريع وحسب الحاجة الأكثر جدوى، ومع ذلك تبقى هناك الكثير من

الطرق والوسائل لحماية النفس من خطورة أعين الرصد. فقد عرف الفلسطينيون من خلال الانتفاضة شكلا خاصا من أشكال التجسس الإسرائيلي وتتبع المقاومين من خلال رصد اتصالاتهم بوساطة طائرة تعقب دون طيار، وأدرك الفلسطينيون من خلال التجربة وتكرار المثال أن سماع صوت تلك الطائرة في أي منطقة يدل على قرب اغتيال أحد نشطاء المقاومة.

وقد تم تسجيل الكثير من حالات الاغتيال بعد سماع صوت تلك الطائرة كما في حالة الشهداء محمود الطيطي وأيمن حلاوة وصلاح دروزة في نابلس، ونزيه أبو السباع في جنين وزياد الدعاس ورائد الكرمي وفواز بدران في طولكرم وغيرها الكثير من الحالات مما يؤكد امتلاك تلك الطائرة لأجهزة تلتقط بثّ الخلوي وتقوم بتحديد المكان. ومع بدء عملية اجتياح الضفة الغربية في الأول من نيسان/2002، شوهدت آليات عسكرية إسرائيلية على شاشات القنوات الإخبارية وهي تتجول داخل المدن الفلسطينية وتضع على ظهرها صحونا لاقطة وترافقها في تحركاتها وحدات اقتحام، حيث رصد العديد من عمليات المداهمة التي تمت بوجود تلك الآيات وهو ما يشير إلى قيامها بدور في التعرف على أماكن اختفاء نشطاء المقاومة الفلسطينية المطلوبين لقوات الاحتلال. وأبرز مثال على ذلك شهده اعتقال ناصر أبو حميد القائد في كتائب شهداء الأقصى والمتهم بالمسؤولية عن عدة عمليات فدائية إذ تم اعتقاله من إحدى الشقق السكنية في منطقة رام الله بوجود تلك الآلية. وقد أوردت إذاعة الجيش الإسرائيلي في أخبارها أن الوصول إلى أبو حميد تم بعد تعقب اتصالاته

مع عائلته لطمأنتهم على نفسه، وهو ما يـــدل علـــى التقـــدم النوعي الكبير لاستخدام التقنية.

التجسس الأكاديمي

يعتبر الزحف الغربي عامة والأمريكي بالتحديد على الأكاديميين والمثقفين الفلسطينيين خاصة والعرب عامة من أهم الأمور الأمنية التي يجب أن تؤخذ بالحسبان عند دراسة الأوضاع الأمنية العربية. عملت الدول الغربية وما زالت تعمل حتى الآن على تطويع بعض الأكاديميين والمثقفين العرب بطريقة يخدمون فيها أهدافها ومصالحها دون أن تتملكهم مشاعر الخيانة أو التبعية.

من الملاحظ أن المراكز غير الحكومية والمدعومة غربيا وأمريكيا على وجه الخصوص قد تزايدت أعدادها في العقد الأخير في أغلب أقطار الوطن العربي بما فيها فلسطين. أغلب هذه المراكز تهتم بقضايا مطروحة عالميا الآن مثل الديمقراطية وحقوق الإنسان وبعث المرأة، وهي تدار من قبل مثقفين يحمل عدد كبير منهم شهادات الدكتوراه أو الماجستير. هذه مراكز موجودة الآن في المغرب العربي وفي المشرق وبتركيز كبير في دول مثل المغرب وتونس ومصر وفلسطين. تمويلها من الخارج بخاصة من الولايات المتحدة وتعيينات المسؤولين فيها تتم من الخارج، وتوظيف العناصر يتم حسب معايير خاصة لا تتعارض مع الأهداف التي يتم تحديدها من الخارج.

تمكنت الولايات المتحدة على مر العقود التي خلت أن تصول وتجول في الوطن العربي وتفرض هيمنتها إلى حد كبير وتنهب ما تشاء وتترك لأهل المنطقة ما تشاء. لكن هذه الهيمنة تبقى معرضة للزوال في حال صحوة الإنسان، أو في حال تصاعد الوعي بالاستغلال الأمريكي والذي يؤدي في النهاية إلى نوع من التمرد والإصرار على الندّية في التعامل أو الاستقلال الحقيقي. الهيمنة تبقى مؤقتة إذا اقتصرت على الأرض أو الثروات، وهي لا تدوم إلا إذا امتدت إلى الإنسان. الأرض والثروة يحررهما الإنسان في انطلاق وعيه، لكنهما لن يتحررا إذا كان المالك عبدا. فحتى تدوم الهيمنة على المقدرات العربية لا بد من السيطرة على عقل الإنسان وطرق تفكره وتعقله.

الوسيلة المثلى نحو ذلك الهدف هي القبض على عقول المثقفين والمفكرين بحيث يصبحون أدوات الفكر الغربي أو الأمريكي في المنطقة ويعملون بالتالي على بث تدريجي لمنهج حياة منسجم مع هذا الفكر. فإذا تولدت قناعات فكرية بأن الرأسمالية الليبرالية هي نهاية التاريخ وهي القدر المحتوم للتطور الإنساني فإن الهيمنة على المقدرات العربية تتوقف عن كونها هيمنة لتصبح جزءا من المنطق الإنساني الذي يعبر عن أفضل ما توصل إليه الإنسان من نظم. وإذا بثت فكرة حل الصراعات كما هي عليه الآن بدون أبعاد تاريخية وإنسانية ودينية فإن القبول بإسرائيل الديمقراطية التي تشرد الفلسطينيين يصبح فضيلة.

ولهذا فتحت الولايات المتحدة بعض خزائنها ومولت بعض المثقفين والمفكرين العرب لفتح مراكز أبحاث ودراسات تخص الفكر الديمقراطي وحقوق الإنسان والمرأة. القضايا تبدو براقة وجذابة للعربي الذي عانى من القهر والكبت على مختلف المستويات عبر مراحل طويلة من تاريخه، ومن السهل دخول المجتمع من خلالها. وقد أغدقت الإدارة الأمريكية الأموال التي بدت مغرية لعدد لا بأس به من المثقفين فأقبلوا عليها وبتفسيرات تستند على مصلحة الشعب وتثقيفه حول حقوقه كإنسان وحول محاسن الديمقراطية وما يصاحبها من حرية رأس المال. وقد أخذ الإقبال في بعض الأقطار العربية سمة السباق والتنافس من خلال تلّبس القيم التي يرغب الممول في ترويجها وإشباعها في الناس.

حتى نكون واضحين من الضروري الإشارة إلى أن استعباد العربي وكبت حريته من خلال أنظمة حياته المختلفة تفتح الأبواب أمام هذا الغزو الأجنبي. أي أننا لا نقول أن الوضع العربي جيد ونحن العرب لسنا بحاجة إلى من يعلمنا الحرية واحترام الآخرين، وإنما نوكد أننا نحن نصنع بأيدينا مأساة تقود إلى اغتراب الإنسان فتلقيه في أحضان الآخرين. يعاني العربي من القمع الاجتماعي والسياسي والكهنوتي، ويندر أن يعيش لحظات يشعر بها بحريته. والحال هكذا، وجد الآخرون ثغرات يحققون من خلالها مصالحهم على حسابنا فكريا وعاطفيا وماديا.

أقام عدد من المثقفين مراكز لا تؤمن في عملها الداخلي بحرية الإنسان ولا بالديمقراطية، ولا يصر الذين يمولوها على تطبيق القيم التي أرادوا الترويج لها. ففي عملها الداخلي،

تعتمد هذه المراكز الوساطات والمحسوبيات في الوظائف وتفضل نوعية معينة من الناس حسب مقاييس الممولين، وهي نوعية لا تحترم نفسها ولا تراثها ولا تاريخها وإنما تحترم ما يريد السيد أن يُحترم. ومقابل ذلك هناك رواتب مجزية ومغريات أخرى مثل الدورات الدراسية والمؤتمرات العالمية وما شابه ذلك.

جنبا إلى جنب الترويج للفكرة عملت هذه المراكز على القيام بدراسات متعددة الجوانب ذات تمويل أمريكي أيضا، وشكلت قناة معلوماتية هامة بالنسبة للمخطط الأمريكي. دراسات لا يقوم بها مجرد مستشرق أو زائر وإنما ابن البلد الذي لا يرى الأشياء فحسب وإنما يفهم تماما الدوافع الكامنة خلفها وأبعادها الاجتماعية والنفسية وانعكاساتها على النسيج الاجتماعي وغير ذلك. إنها دراسات مكسوة باللحم والشحم ولا يمكن أن يتقنها من لم يكن عضوا في المجتمع وناهلا من منابعه التربوية، وهي تشكل أساسا متينا لفهم المجتمع وتيّسر في تخطيط السياسات وتنفيذ القرارات.

يقدم بعض علمائنا وأكاديميينا معلومات هامة عن الوطن والمواطنين والأحزاب والتنظيمات والتوجهات وغير ذلك من المواضيع الهامة. ربما كانت الولايات المتحدة بحاجة إلى طواقم كبيرة من خبرائها وباحثيها وإلى أموال ضخمة للحصول على مثل هذه المعلومات، وهي الآن لا تحتاج إلا إلى بعض فتات المال تجند بها أبناء الوطن. معلومات دقيقة ومتواصلة يتم تقديمها لها تحت شعار البحث العلمي ودعم المجتمعات النامية وتحسين أحوال الناس. وبهذا أصبح بمقدور الولايات المتحدة أن تحرز تقدما كبيرا في دقة تخطيطاتها

حول توجيه الحدث في الوطن العربي وفي التعامل مع مختلف الطروحات وإدارة الأزمات واستغلالها، الخ.

لاحظت من خلال معرفتي بالمراكز الموجودة في فلسطين والتي تخضع لذات السايس والموجه الخارجي الذي تخضع له المراكز الأخرى في الوطن العربي أن القائمين عليها يعملون دائما على استبعاد التاريخ عن نشاطاتهم البحثية والندوية. فهم يقولون للذين يحتكون بهم من الباحثين والدارسين الناشئين أن التاريخ عبارة عن أحداث قد مضت وأن استذكارها وخلطها مع تطلعات المستقبل لا يفيد بشيء وإنما يلحق الضرر بما يتطلبه البحث العلمي من انطلاق بدون قيود. يجب ألا يكون المرء أسير التاريخ أو حبيس انطباعات وقناعات مسبقة، هكذا يقولون ويزيدون بأن العالم قد تجاوز مراحل الأحقاد التاريخية والضغائن والطموحات القومية ومشاعر الاعتزاز بالذات والأمة لصالح التنمية والرفاء الشخصي والعلاقات القائمة على المصالح.

وهذا ما تمت ملاحظته في نشاطات التطبيع التي تبناها هؤلاء المثقفون والسياسيون المتعاونون معهم. شارك هؤلاء في تنظيم رحلات شبابية إلى دول مختلفة بمشاركة شباب وشابات من إسرائيل بهدف إقامة علاقات شخصية تمهد لعملية التطبيع، وأوصوا شباب فلسطين بالابتعاد عن مناقشة التاريخ ذلك لأن اجترار الآلام يفسد الاستمتاع بالرحلات. ولا أشك بأن أمثالهم في الوطن العربي يقومون بذات المهمات خدمة لمتطلبات ما يسمى بالعملية السلمية في المنطقة والتي تخدم بالتالي مصالح أمريكا.

ولوحظ أيضا أن هذه المراكز معادية للإسلام في سياسة التوظيف وفي تشكيل استعدادات العاملين فيها. إنها لا تقوم بأبحاث ذات طابع عدائي سافر للإسلام، لكنها تزرع داخل غرفها مشاعر الاستهانة بالقيم الإسلامية وترسخ فكرة ظلامية الإسلام وتخلف طروحاته عن طروحات التنوير والنهوض. وإن عمدت إلى القيام بأبحاث حول الإسلام فإنها لا تركز على ما يطرحه الإسلام من فكر وإنما على سلوكيات المسلمين الآن وعلى الحركات والتنظيمات الإسلامية. والهدف واضح وهو الإساءة إلى الإسلام من خلال سلوكيات غير قويمة ينسبها العامة وبعض رجال الدين إلى الإسلام. وكذلك الكشف عن نوايا وأساليب عمل الحركات والأحزاب التي تتخذ من الإسلام شعارا لها. وحسب رأي أحد الأمريكيين، هذه الأبحاث مهمة في مكافحة ما أسماه بالإرهاب الإسلامي.

هيأ بعض المثقفين والأكاديميين للولايات المتحدة أجواء مريحة لاختراق المجتمع العربي وأصبحت قدرتها على النفاذ إلى التفكير وطريقة الحياة العربية في زمن تكاثر المثقفين أفضل بكثير مما كانت عليه في زمن الجهل. كان يخجل الفلاح البسيط أن يمد يده للمستعمر مصافحا وكان يتوارى ضيقا إذا اضطر أن يكلم عدوا، أما المثقف، وليس كل مثقف، فقد خلع كل الأثواب باسم الواقعية والعقلانية والبحث العلمي ليرتدي ما يشف من اللباس ويحول الوطن إلى عورات مكشوفة.

يجادل مثل هؤلاء المثقفين والأكاديميين بأنهم ليسوا جواسيس ولا يمكن أن يكونوا كذلك من خلال حضور مؤتمر تطبيعي أو كتابة بحث علمي، وأنهم قادرون على كشف مخططات

الأعداء وإحباطها بفضل سعة آفاقهم. هذا صحيح إذا كان المقصود بالتجسس مجرد الوشاية وكتابة تقارير شخصية مباشرة لهذه الجهة الاستخبارية أو تلك. لكنهم ينقلون معلومات حيوية لدول لها أهداف معادية للعرب ومصالحهم.

وهم يجادلون بأن المعلومات التي تزخر بها أبحاثهم وأوراقهم العلمية منشورة وليست حكرا على أحد، وبإمكان أي جهة أن تستفيد منها. وبالتالي، حسب قولهم، إنهم يستخدمون الأموال الغربية لإجراء أبحاث يستفيد منها العرب والقيادة الفلسطينية في صنع قراراتهم التي تمكنهم من درء العدوان والمحافظة على مصالحهم. هذا جدل مردود لأن الأنظمة العربية والقيادة الفلسطينية لا تقرأ أبحاثا ولا تهتم بالعلم والعلماء وتتخذ قراراتها على أسس غير علمية، ولأن العرب لا يملكون الوسائل المتطورة والأجهزة الفعالة للاستفادة فعلا من البحث العلمي. تملك الولايات المتحدة الوسائل والرغبة والإرادة على استعمال نتائج البحث العلمي بالطرق التي تعزز مصالحها في المنطقة. ويبقى الأفضل وطنيا أن يناضل هؤلاء المثقفون من أجل انطلاقة علمية في الوطن العربي بدل تقديم خدمات للأجنبي لقاء فتات من المال.

ألحق هؤلاء الأكاديميون والمثقفون ضررا كبيرا بالأمة العربية وبالشعب الفلسطيني، لكنهم ليسوا وحدهم الذين يتحملون المسؤولية. تقع المسؤولية الأكبر على الأنظمة والقيادات التي تعرقل البحث العلمي وتحاول أن تمنعه. لا تتوفر أموال كافية للباحثين والمثقفين العرب، ولا تتوفر لهم أجواء الحرية التي لا يمكن للبحث أن ينطلق بدونها. تقدير العلم والعلماء ما زال ضعيفا في الوطن العربي على

المستويين الشعبي والرسمي، وحرية الفكر والرأي ما زالت تعاني من القمع الرسمي والحزبي والاجتماعي. أجواء الضعف والقمع تقود إلى التهاوي وتصنع ثغرات ينفذ من خلالها الطامعون، وعيوبنا عبارة عن بوابات يمر من خلالها الصهاينة والأمريكيون وكل من شاء أن يجعل لنفسه في وطننا مقاما. وبسببها أيضا قرر علماء ومفكرون أفذاذ أن يهجروا الوطن فكانوا نعمة لدول فتحت أمامهم أبواب العمل والتقدير.

عِبر في أمن المقاومة العربية

من خلال التجربة، نستطيع الاستنتاج أن سرية العمل الجهادي الكفاحي عبارة عن عامل حاسم في نجاح المقاومة ودحر المعتدي. من السهل أن يتغلب المرء على عقبات كثيرة تعترض طريقه الجهادي مثل نقص السلاح وقلة عدد المجاهدين وشح المال، لكن الاختراق الأمني عبارة عن سرطان قاتل يضيع الجهود ويودي بنفوس المقاتلين ويفسد مختلف الخطط ويضعف الثقة بالنفس ويسبب الإرباك والفوضى. قد يتزود المقاتل بمائة بندقية فيفرح لها، لكن من المحتمل أن يكون المزود جاسوسا أو مخبرا؛ وقد تتدفق الأموال الكثيرة على المقاتلين فتنشرح الصدور، لكن من المحتمل أن يكون القائد خائنا فيستعملها لإفساد المقاتلين، هم يموتون وهو يبقى حيا رمزا للبطولة والصمود.
لأن القضية الأمنية حاسمة في حياة الشعوب، نسجل العبر التالية كملخص لما تعلمناه عبر الزمن:

أولا: الحذر من وسائل الإعلام. وسائل الإعلام تبحث عن زفة ولا يهمها مصير الذين تقابلهم من المجاهدين. يريد الإعلاميون أن يحققوا سبقا إعلاميا فيبحثوا باستمرار عن رموز المقاتلين لإجراء المقابلات والتحليلات فيقدموا للعدو معلومات من شقين: معلومات عن الأشخاص وأخرى عن الخطط أو الرؤى وما شابه ذلك. وربما يكون من بين الإعلاميين مخبرين أو معادين. فمثلا قادت امرأة جميلة جاسوسة لإسرائيل عملت في الحقل الإعلامي الإسرائيلي إلى قتل خليل الوزير (أبو جهاد) ، وقام من تنكروا بثوب إعلاميين باغتيال أحمد شاه مسعود، وعلى ذلك قس.

من المهم ألا يظهر أي مقاتل ملثم أو غير ملثم على شاشات التلفاز وألا يدلي ببيانات صوتية أو صورية، بل من المفروض أن تكون هناك آلية بدائية لا تعتمد التقنية الحديثة لمخاطبة الجمهور. ومن الأفضل أن تكون هناك آلية اتصال سرية مع شخص خارج مناطق المقاومة يستطيع أن يقوم بالدور الإعلامي المطلوب. والمهم أن الحدث هو ما يقوم به المجاهد وليس ما يقول. الحدث يصنع خبرا حقيقيا، أما القول فيصنع ثرثرة إعلامية.

وسائل الإعلام تريد أن تعرف من الذين يقاومون ومن أين يأتون بالسلاح وعن مجمل علاقاتهم الشخصية والحزبية والداخلية والخارجية وإلى غير ذلك. إنها تسأل أسئلة أمنية جدا وتقدم معلومات كثيرة لدوائر المخابرات المختلفة، وأشعر في كثير من الأحيان التي أشاهد فيها لقاءات تلفازية مع مقاتلين أو قادة أن المذيع/ة عبارة عن عنصر مخابرات والطرف المقابل عن شخصية منهارة تقدم معلومات أمنية خطيرة مجانا.

التجربة الفلسطينية بهذا الصدد فاشلة جدا ولا تقدم درسا يمكن الاستفادة منه. قادة الفصائل في فلسطين يريدون تحرير فلسطين من على شاشات التلفاز ومن خلال المهرجانات والخطابات فيقعون ويوقعون بغيرهم؛ وكذلك بالنسبة للعديد من المقاتلين الذين يظهرون على الشاشة متوعدين مهددين فيقدمون أنفسهم بلا ثمن للمخابرات الإسرائيلية. من الخطأ الكبير تقديم العادات العربية التي تقدس حب الظهور على القيم الأمنية. صحيح أن الناس يرون المقاتل على الشاشة فينتفخ رأسه لكنه قد يدفع رأسه ثمنا.

ثانيا: تعلمت أن قوة المقاتل تكمن في هالة الغموض التي يقيمها حول نفسه. المقاتل الغامض عبارة عن سر عميق يثير الذعر في قلوب الأعداء حتى لو كانت بندقيته صدئة. المقاتل الصلب هو المقاتل المتستر الذي يعمل كشبح كأنه من عالم الجن، فيلقي الرعب في قلوب الأعداء قبل أن يصلهم فتخور قواهم ويفقدون قدراتهم على السيطرة وخوض المعركة.

ثالثا: لا رحمة بالمخبرين والجواسيس والعملاء الذين هم خونة. العملاء هم الأخطر لأنهم يسهرون على تنفيذ سياسات العدو ويبثون الفتنة والفساد في المجتمع ويساومون على قضايا الأمة وعلى مصير الأمة والوطن مقابل مصالحهم الخاصة. أما المخبرون والجواسيس فيتلمسون الأخبار ويعملون في صفوف المجاهدين من أجل نقل المعلومات للعدو. هؤلاء عبارة عن آفات قاتلة تفسد الخطط وتوقع بأبناء الأمة قبل أن يقوموا بواجبهم.
التجربة الفلسطينية قامت على ملاطفة الجواسيس وعلى ترقية العملاء واحتضانهم، ومن يتعلم هذه الممارسة لا يريد في

الحقيقة وطنا أو دولة وإنما يكون متآمرا مجرما ويعمل على قتل الناس باسم الثورة وإخضاعهم بذريعة الفشل. إنه من السخف والتحايل على مستقبل الوطن أن تتم تبرئة خائن بعد أدائه القسم القرآني أو بعد أداء ركعتي توبة لله سبحانه. لكن لا يجب اتخاذ أي إجراء ضد شخص مشتبه به دون التأكد لما في الإجراء الخاطئ من ظلم وتفتيت للمجتمع وتمزيق لقوامه.

رابعا: عدم التدخل بشؤون الناس الخاصة. هذا ليس من عمل المجاهدين وليس من أعمال السرية والمحافظة على الذات والتنظيم. النزاعات بين الأزواج أو التجار أو اللصوص ليس من شأن الذين يريدون تحرير الوطن. هناك أهل الخير والإصلاح الذين يكرسون جهودهم لحل النزاعات بين الناس، وهناك الشرطة التي يجب تركها وشأنها من أجل الحفاظ على الأمن المدني بالقدر الذي تتمكن منه. لكن من المحتمل أن تستدعي الحالات المستعصية على الحل إجراء أمنيا من قبل المجاهدين وليس ظهورا مدنيا لأن الذي يصنع المشاكل المدنية في ظل الحرب إنما يريد بالأمة والوطن السوء.

خامسا: التعامل مع المتبججين الذين يستعرضون سلاحهم وانتماءهم للمقاومة أو المجاهدين ينتهي بالمرء إلى السجن أو القبر وقبل إنجاز المهام الجهادية. المتبجح خطير كالجاسوس من ناحية تقديم المعلومات. من المهم جدا للمجاهد أن يتعامل مع متواضعين يعتبرون جهادهم جهادا في سبيل الله وليس من أجل نيل خير دنيوي لا يطول أمده مثل الجاه أو السمعة الطيبة أو فرض الهيبة. أما المتبجح فهو إما جاهل أو خائن مرتبط مع العدو، وسواء كان هذا أو ذاك فإنه يؤدي إلى خلل

في صفوف المقاومة. لقد تعلمت يقينا أن السلاح العلني سلاح جاهل أو خائن.

سادسا: تعلمت أشك فورا بكل شخص يتوجه بسؤال أو استفسار له علاقة بالقضايا الأمنية. طبعا من المتوقع أن يتحدث العاملون معا بالقضايا الأمنية، لكن السؤال الأمني من خارج أصحاب الشأن يبعث على الريبة على الرغم من أن السؤال قد يكون بريئا. المجاهد لا يجيب ويبقى حذرا باستمرار خاصة من وسائل الإعلام.

سادسا: الخلايا كبيرة الحجم قاتلة لأنه من السهل كشف سرها. من المفروض أن تكون الخلية من شخص واحد فقط بالنسبة للمبتدئين في العمل الجهادي، ولا مانع من أن تكبر إلى ثلاثة أو أربعة بالنسبة للمحترفين الذين تمت تجربة قدراتهم على الكر والفر. لكن يبقى من الأفضل وبقدر الإمكان التعامل بأسماء وهمية ودون حصول تعارف شخصي يشمل أمورا مثل مسقط الرأس أو العمل، الخ. هذا ضروري من أجل التغلب على الاعترافات التي يمكن أخذها من الشخص في حال الاعتقال. كثير من المعتقلين يعترفون تحت وطأة التعذيب، ومن الأفضل ألا تكون لديهم معلومات حول الذين يعملون معهم أو حول قياداتهم.

سابعا: الاتصال عبر نقاط ميتة وأسماء وهمية أرقى بكثير من اتصال المعارف وفي البيوت أو الأماكن الخاصة. قد يكون الاتصال في موقف للسيارات أو مستشفى أو دائرة حكومية أو مسجد، الخ. ومن المفروض أن يكون هناك

مهندسو اتصالات ينسقون كيفية ترتيب اللقاءات، على أن تتوفر قيادة اتصالات احتياطية جاهزة للعمل فورا عند سقوط القيادة الأساسية.

ثامنا: استعمال أجهزة الاتصال الحديثة خطير جدا ومن المفروض أن يكون المجاهد في غاية الحذر خاصة أن تقنية تحليل المعلومات وتفكيك الترميز قد تطورت جدا. الاتصال الشخصي المباشر هو الأفضل والأكثر سرية على الرغم من أن أنه يستهلك جهدا ووقتا كبيرين. أمريكا الآن قادرة على مراقبة نسبة ضئيلة جدا من المكالمات الهاتفية الأرضية والنقالة، لكنها وإسرائيل لديهما القدرة على التركيز على أماكن التوتر مثل فلسطين وأفغانستان والعراق ولبنان وتحليل مختلف المكالمات. كما أن لدى أمريكا تقنية بصمات الصوت المخزنة في الحاسوب والتي تمكن أجهزتها من معرفة المتكلم إذا كان صوته قد دخل البرنامج.

تاسعا: لاحظت أن الرجال في القضايا الأمنية أقل سرية من النساء خاصة الذين يكثرون من الكلام. هناك عقدة لدى الرجال في المجتمع العربي تتمثل في حبهم للظهور والتفاخر بأعمال قاموا بها أو لم يقوموا، أما النساء فتحب التكتم حول هذه المواضيع الحساسة خشية على مستقبل زواجها وحرصا على سمعتها. ولهذا فإنه من الممكن الاعتماد على النساء بقضايا حيوية مثل الاتصال ونقل المواد. لكن عادات المجتمع العربي ونظرته للمرأة تشكل معوقا كبيرا أمام حركة المرأة الجهادية وأمام مهام حركة المقاومة.

عاشرا: هناك انخفاض في مستوى الوعي الاجتماعي العربي بالقضايا الأمنية حيث أن الناس يكثرون من الثرثرة والإسرار حول نشاط هذا الشخص أو ذاك. وإذا كان العدو غير منتبه لنشاط شخص معين فإن ثرثرة الناس تنتهي أخيرا في حجرة مخابرات العدو. من المفروض أن تكون هناك حملة تثقيف أمني واسعة بخاصة في المناطق التي تشهد صراعا عربيا ضد الأعداء.

أحد عشر: غياب قيادة سياسية يشكل مشكلة مثلما تشكل القيادة السياسية المساومة مشكلة وعامل إحباط وهزيمة. القيادة السياسية يجب أن تكون ذات عقلية جهادية، أما إن اختل التناغم بينها وبين المجاهدين فإن التمزق سيكون مصير حركة المقاومة، وتتحول القيادة السياسية إلى سمسار يساوم على آلام الناس.

ثاني عشر: المهادنة والتردد يشكلان عاملا محبطا للمجاهدين وللروح المعنوية للناس. في التجربة الفلسطينية منذ عام 1920، ضاعت دماء الفلسطينيين في الهدن والمراوغات السياسية. من يريد تحرير الوطن عليه أن يستمر بدون توقف، ولا مانع من البحث عن ثمار سياسية دون ما توقيف للأعمال الجهادية. إنما عليه ألا يكون أهوج أو متهورا بل عاقلا ومصرا على تقييم الأمور علميا بدون انفعالات.

ثلاثة عشر: هناك أصناف من الناس لا يجوز أن يدخلوا في صفوف المقاومة: الجبناء والمزايدون وغير الأنقياء أخلاقيا. الجبناء يتساقطون في الطريق، وقد يتحولون إلى عملاء

وجواسيس يلحقون أفدح الأضرار بالمجاهدين. أما المزايدون فلا يتركون مجالا للتفكير العلمي والتخطيط الهادئ، وتقود مزايداتهم إلى إفساد العلاقات مع الناس الذين من المفروض أن يكونوا السند الحقيقي للثورة والمجاهدين. أما غير الأنقياء أخلاقيا بخاصة أصحاب الفروج والمتعاطين للكحول والمخدرات والكاذبين فعلى استعداد أن يبيعوا فلسطين والعراق وموريتانيا وباكستان من أجل فخذ امرأة أو بطحة ويسكي. قد يكون من الساقطين أخلاقيا من يملكون الجرأة على المواجهة لكن الثورة بحاجة للجرأة وللتدبير والثبات في مواجهة متع الحياة الدنيا. هذه الأصناف لا تستحق المهادنة ولا الملاطفة لأنها مدمرة قاتلة. في ثورة منظمة التحرير الفلسطينية عبرة لمن يعتبر.

أربعة عشر: المال الوفير مفسدة للمجاهدين وللناس خاصة عندما يقع في أيد غير أمينة. من الأفضل أن يعتمد المجاهدون على أنفسهم وعلى شعبهم ماليا وغذائيا بقدر الإمكان. الناس هم الذين يحملون المقاومين ماليا، أما إذا أصبحت المقاومة تكيّة عثمانية كما فعلت قيادة منظمة التحرير فإن الناس يترهلون ويتحول النضال الوطني إلى استثمار شخصي ويعم الفساد وتستشري التواكلية والاستهانة بالذات.

خمسة عشر: لا أمان للأنظمة العربية ورجالاتها. تعيس من ينسق أعمال المقاومة مع نظام عربي أو حاكم أو سلطوي متنفذ، أو يأمن لأجهزة الأمن العربية بخاصة جهاز المخابرات الذي لا تأخذه في الناس والوطن شفقة أو رحمة. القادة العرب يحرصون دائما على كراسيهم ومتعها وفي سبيلها تهون مختلف الموبقات والمؤامرات. لا ضرورة

لمواجهة الأنظمة تقليلا في عدد الأعداء المســـتنفرين، لكـــن بالرغم من ذلك لن تترك أغلب الأنظمة العربية مقاومة بدون ملاحقة لأن مصالحها مرتبطة بمصلحة أمريكا وإسرائيل، أو لأنها، في أحسن الأحوال، خائفة منهما. لا مانع من الحصول على أموال أو مساعدات من أنظمة عربية لكـــن دون مقابـــل تنسيقي أو معلوماتي.